الفصل الأول

نظرةٌ عامةٌ

إن مأساة التاريخ ليست بالمسرحية التي يمكن أن تؤديها طائفة بمفردها، فكل طائفة من الطوائف تشارك فيها، و من هذه الطوائف القبائل العربيـــة التـــي أدت دورها في هذا المضمار.

ونظراً للظلمة التي غالباً ما أحاطت بالأحداث البعيدة عنا، فإن مكـــان بـــدو مصر في العصور الوسطي لم يتحدد بعد تحديداً واضحاً.

ولا يمكننا أن نعتبر تاريخ البدو مرحلة عادية من تاريخ مصر الكبير، فهـــو كذلك تاريخ لنوع من الدول التي لا حدود لها، حيث يشكل التفـــاهم بـــين رجالهـــا مجتمعها المستقل عن الأرض، تلك الأرض التي لا يشغلونها في أغلب الأحيان إلا بصفة موقوتة، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى أن البدوي الذي يجذبه سحر الأرض ينقلب إلى حضري.

فعند وصول هؤلاء البدو إلى مصر نجد أن الدين الواحـــد الـــذي يجمعهـــم الإسلام الحنيف، وهو القوة الدافعة اللازمة لانطلاق هذا المجتمـــع البـــدوي نحـــو توسعه الهائل، ومجرد وجود هؤلاء البدو على أرض مـــصر هـــو أمـــر ميـــزهم وسيميزهم عن الجماهير البدوية العربية العريضة الأخرى في العالم الإسلامي، ولا يعني هذا انقطاع علاقات القرابة التقليدية بين القبائل، ويظهر هـــذا التمييـــز فيمـــا يستتبعه من أن تصل أحداث العالم الإسلامي إلى مصر وقد خفت حدتها بقدر مـــا اخترقته من حائط سميك تمثله هذه الصحراوات الشاسعة التي تفصل مـــصر عـــن الأجزاء الأخرى لهذا العالم الإسلامي، ويظهر كذلك أن بدو مـــصر سيخـــضعون للتأثير البطيء للتربة المصرية، لدرجة أن عدداً كبيراً منهم ســـيتخلى عـــن حيـــاة البداوة، مفضلين عليها الحياة الحضرية وطرائقها.

لذلك فإن كتابة تاريخ بدو مصر ليست بالعملية الكلاسيكية التي تتطلبها عادة معالجة موضوع تاريخي يتمشى مع المعايير المعتادة، ولكي يكتب تاريخ للبدو فإننا نجد أمامنا عدة إمكانيات متاحة هي:

- محاولة تتبع كل من القبائل الكبرى في حياتهم الخاصة وخـــلال الحقبـــة الزمنية موضوع البحث، على أن تكون الدراسة بالنسبة لكل من هذه القبائل ابتداء من عام الفتح العربي، ولكن النتيجة ستكون عبارة عن نوع من الحوليات للقبائـــل البدوية، في سياق قد تعوزه النظرة الرحبة.

- أو أن نتتبع كذلك بالنسبة لكل منطقة من مناطق مصر دور البـــدو فـــي الحياة المحلية، ثم نعمل على تجميع هذه الأدوار وإدماجها في تاريخ البلد.

- وأخيراً، أن يقيم المؤرخ من نفسه مراقباً ثابتاً إلى حد ما، يتـــولى إلقـــاء الضوء على حركة البدو، عاماً بعد عام، أو عصراً بعد عصر، وذلك ضمن أدوار التاريخ، دون أن يُدْخِلَ في اعتباره سوى البدو وحدهم ضمن مجموعة الأطـــراف المكونة لهذا التاريخ.

وهذه هي وجهة النظر التي انتهجناها في هذه الدراسة، فقد قمنا في الفـــصل المتعلق بالتوزيع الجغرافي للبدو داخل الحدود المصرية بالاستدلال على القبائل في كل منطقة من مناطق هذه الحدود، وأضفنا - إلى هذا التوزيع الجغرافي الذي قـــد يبدو سرداً جامداً، أو تحديداً تعسفياً- فصلاً خاصاً ألممنا فيـــه البيانـــات المتعلقـــة بتواريخ دخول القبائل البدوية إلى مصر.

أما بالنسبة للنظرة الحولية، التي ربما كانت نظرة البدوي العجوز وهو يروي تاريخ قبيلته وحدها، فيمكن الوقوف عليها إذا ما تتبعنا بصبر وأناة عـــشيرة مـــن العشائر منذ تاريخ ظهورها فوق التراب المصري ومسايرتها خلال هذه الدراسة.

ويلاحظ أن التقسيم الذي قمنا به لتوزيع هؤلاء البدو طبقاً لأنسابهم العربيـــة، وهو تقسيم يستجيب لضرورة معرفة البدو، فقد أظهرت التجربة فعـــلاً أنـــه مـــن العسير ألا نلجأ إلى الأنساب لكي نصل إلى التفرقة بين القبائل، فالبـــدو يظهـــرون

ككتلة متماسكة ملتحمة ولكنها فضفاضة و عائمة في نفس الوقت، ما لم ننجح في تنظيم الصلات بين البطن والقبيلة، وبين القبيلة والشعب الأصلي. فإذا ما انتهينا من عملية التوزيع هذه، أصبحت هذه الكتلة البدوية حينئذ مركبة من عدة كيانات شبه مستقلة، يسهل التعرف عليها وبالتالي معرفتها.

ومع هذا، فإن ندرة المعلومات الخاصة بالبدو تقف عقبة كئودا لابد من تخطيها وتذليلها، وهذا هو السبب الذي يدفعنا إلى استخدام كل إشارة مهما صغرت وأن نستعملها إلى أقصى درجة من الاستعمال، ولقد بدا لنا أن الطريقة المثمرة في هذه الحالة هي اختيار عدة رؤوس موضوعات لتكون بداية نحو القيام بإجراء استقصاء متعمق بكل منها، ويمكننا أن نستخلص من التوزيع الجغرافي لأماكن هبوط القبائل ومواقعها في مصر، عدة نتائج هامة، نذكر منها:

أولا: تحديد نوعية التفضيل التي كانت تحدو البدو عند اختيارهم للبيئة الطبيعية التي كانوا يقيمون فيها عند نزولهم بأرض مصر، أو بمعنى آخر: لماذا فضل البدو أن ينزلوا في مكان دون آخر؟ وسيتضح لنا من ذلك، أن أطراف مصر، والمناطق الرملية والسبخة ونتوء التلال والروابي هي التي – على ما يبدو– قد جذبت إليها البدو أكثر مما جذبهم اللاندسكيب الكلاسيكي لوادي النيل، الذي يتكون من تربة سوداء تغمرها مياه الفيضان، وهي تزرع عادة بواسطة نظام القنوات والأحواض.

ولاشك أن هذه الأراضي الخصبة كانت في يد الأقباط وقت نزول البدو بمصر، والواقع أنه يبدو صحيحاً كذلك في حالة بدو مصر: أنهم لم ينفذوا سوى المساحات الغير صالحة للزراعة"، ومن أنهم قد باشروا استصلاح المساحات التي ظلت غير مستخدمة".

ثانياً: إبراز نشاط البدو في هذا الإقليم أو ذلك كما وقفنا عليه من خلال تطوره الاقتصادي طوال فترة نزولهم فيه، وهو ما حدث مثلاً بالنسبة لإقليمي الحوف الشرقي ومنطقة إخميم في الصعيد.

فقد كانت منطقة إخميم في الصعيد التي خربت ولحقها الدمار وتركت أراضيها بلا زرع، بعد المذابح التي أقامها المماليك ضد بدو الصعيد عام (٦٥١)هـ، وعام (٧٠١)هـ، وهي المذابح التي أفرغت المنطقة عملياً من سكانها، ولقد ظل هذا الإقليم على هذه الحالة إلي ما بعد موقعة بدر بن سلام عام ٧٨١هـ، حينما قام الأتابك برقوق باستدعاء المنتصرين من قبائل الهوارة ليقيموا بهذا الإقليم، ويرجع الازدهار الحقيقي لهذه المنطقة إلي عمل هذا البطن من البربر والهوارة الذين يرجع إليهم الفضل في إدخال زراعة قصب السكر، وإقامة الدواليب لعصره.

أما بالنسبة للحوف الشرقي، فقد كان عبارة عن منطقة من الأراضي البور، عندما هبط بها القيسيون، بناء على أمر عبيد الله بن الحبحاب، وابتداء من عام ١٠٥هـ، فقد كانت منطقة بلبيس على وجه الخصوص – حيث صدرت الأوامر للقَيْسِيِّين بالنزول فيها– شبه خالية، قاحلة لا زرع فيها ولا طلح، كما صدرت إليهم كذلك الأوامر لزراعة الأرض، وهو ما قاموا به فعلاً وبنجاح كبير على ما يبدو، ولا يجب أن يغيب عن أذهاننا أن البدو عند وصولهم إلي مصر كانوا ممنوعين من زراعة الأرض بناءً على طلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقد استمر الحال على هذا ونفذت هذه الرغبة طوال ما يزيد عن القرن من الزمان، وبالطبع فإن هذا لم يحل دون البدو وممارسة الرعي وتربية الماشية وهي حرفتهم التقليدية.

ومنذ أن استطاع البدو زراعة التربة أصبحوا أشبه شيء بالفلاحين سكان الأرياف، واختلطوا بهم اختلاطا قوياً بحيث اضطر المماليك إلي التفرقة بين فلاح من سلالة مصرية وآخر من سلالة بدوية عن طريق نطقهم لحرف القاف في كلمة"دقيق".

ونحن نصل هنا إلى خاصية رائعة من خواص البدوي وهي ملكته على التأقلم بأيكلوجية معينة، وهي ملكة تتيح له تغيير طريقة حياته ووظائفه ووسائل معيشته، لتتمشى مع البقعة التي ينزل بها، وتبعاً للظروف التي تتحكم فيها.

ولقد كان البدو فوق الأرض المصرية في حالة استقرار تقريباً، ولكن المناخ السياسي وتقلباته وما كان يحمله لهم من عداء؛ كان يضطر عدداً كبيراً منهم إلـــى العودة إلى حالة البداوة، وعلى ترك الحافة الخصبة لوادي النيل للغوص في أعماق الصحراء كي يتواروا عن أعين المماليك، أما الآخرون ممن بقوا في مصر، فقـــد أصبح من الصعب تميزهم عن الفلاحين، وهو الأمر الذي أدى بهم في النهاية إلى أن ينقلبوا إلى أهل حضر واستقرار.

ومما لا شك فيه أن من الأهمية بمكان أن نعرف المدة التي استغرقتها فتـــرة الانتقال هذه، التي تفصل بين البدوي والرجل الأصيل عندما يدخل إلى مصر، وبين الفلاح ذي الأصل البدوي بعد أن انهمك في ثراء مصر الضخم والمتوازن، والذي يتجدد دائماً أبداً في خصوبته الناجمة عن فيضان نهر النيل.

ولكن كيف يمكن لنا أن نقيِّم هذه الفترة الزمنية؟ وهل استوت هذه الفترة في طولها بالنسبة لكل قبيلة، أو لكل عائلة؟ ربما كانت الإجابة بالنفي، فإن المؤشرات الوحيدة التي يمكن أن نستشفها في هذا الصدد؛ نجدها مشتتةً ضمن معلومات تتعلق بأمور أخرى مخالفة تماماً، فالأزد مثلاً؛ تلك القبيلة التي سيلجأ إليهـــا ولاة مـــصر الإسلامية من أجل تقليد رجالها المراكز التي يشترط في أصحابها النزاهة والأمانة؛ هؤلاء الأزديون سيرون عدداً لا بأس به من رجـــالهم يتركـــون الحيـــاة البدويـــة ليمارسوا في الأمصار حياة حضريَّة مما تتطلبها وظائفهم في إدارة البلاد، وماذا نقول عن أولئك الذين نرى مدافنهم في القاهرة، والتي تؤكد شواهد قبـــورهم التـــي تحمل تواريخ ترجع إلى القرن الثاني والثالث للهجرة بأن أصحابها ينتمون إلى قبيلة كانت تقيم في نفس هذه الفترة، بجهة ما من الحوف الشرقي؟

ولدينا كذلك ما تذكره لنا كتب التاريخ عن"بني جماعة"، وهم بطن من كنانة الذين قدموا لمصر ثلاثة أجيال من القضاة في الفترة مـــا بـــين (٦٩٥)هـــ إلـــى (٧٨٥)هـــ، ويبدو أن القاسم المشترك بين هؤلاء البدو، والذي ربما ميـــزهم عـــن الجماعات الأخرى التي كانوا يعيشون بين ظهرانيهم هو الخلق البدوي، وما يمكن

أن نقوله فيما يتعلق بهذا الخلق مما قد نستنبطه من مجريات الأحداث التـــي كـــان البدو طرفاً فيها هو أنه يضم مجموعة من الأخلاقيات مثل الإحساس الحاد بالعائلة، وحقوق وواجبات كل فرد من أفراد القبيلة نحو أهله وعشيرته، والخـــضوع التـــام لسلطة رئيس القبيلة، فالقبيلة تهب هبة رجل واحد؛ فالعار الذي يلحق بأحد أفرادها يثأر له الجميع، وتشترك القبيلة في الاستفادة بالإقطاعات التي قد تمنح لرئيسها، كما أن اتخاذ المواقف السياسية لا يتوقف على شخص واحد بل على القبيلة كلها، وهو ما يفسر موقف السلاطين المماليك الذين نراهم في بعض الأحيان وهـــم يحـــاولون تملق البدو عن طريق استقبال رؤسائهم وتكريمهم بالخلع والتشريفات، وإغـــراقهم بالهدايا والمال، في الوقت الذي يحاول فيه نفس هذا الـــسلطان إخمـــاد عـــصيانهم بإرسال تجريدة سلطانية إلى عقر دارهم لقمعهم، وإعمـــال الـــسيف فـــيهم، ومـــن المحتمل كذلك أن هؤلاء البدو – الذين كان رئيسهم يعين في معظم الأحيان خاصة إبان العصر المملوكي– بمعرفة السلاطين المماليك أنفسهم قد يمتنعون فـــي هـــذه الحالة عن الاعتراف بهذا الرئيس ولا يأتمرون بأمره، فالمقابل الحتمـــي للطاعـــة المطلقة لرئيس القبيلة هو الاختيار الحر لهذا الرئيس من طرف البدوي الذي يناقش سلطته التي أضفاها عليه بنفسه، ولكن هذا الاختيار الحر قد أفسدته عملية فـــرض الرئيس، هذا الفرض الذي كان سبباً في الكثير من ثورات البدو، والتي تذرع بهـــا السلاطين المماليك لإغراق البدو في بحار من الدم، ولا شك أن ما يرجو المـــؤرخ معرفته من الظاهرة البدوية هو المشكلات المختلفة التي تحتويها هـــذه الظـــاهرة، وإحدى هذه المشكلات هي ما تشكله الانجذابات التي تصل بين العناصـــر الآتيـــة: المناخ– البداوة.